سلسلة رسائل

مفاهيم يجب أن توضح

٥

الواسطة بين

الحق والخلق



تأليف

شيخ الإسلام أحمد بن تيمية

- رحمه الله تعالى -

دار ابن المبارك للنشر والتوزيع

سلسلة مفاهيم يجب أن توضح (٥)

الـواسـطـة

بين الحق والخَلق

تـأليـف

شيخ الإسلام أحمد بن تيمية

ـ رحمه الله تعالى ـ

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ

دار ابن المبارك للنشر والتوزيع
الخبر - الرمز البريدي ٣١٩٥٢
ص. ب ٣٤٢٢ - هاتف : ٨٩٤٠٢٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، آلله خير أمّا يُشركون ﴾ .
أما بعد فهذه رسالة في رجلين تناظرا فقال أحدهما لابد لنا من واسطة بيننا وبين الله فإنا لا نقدر أن نصل إليه بغير ذلك .

الرسل واسطة تبليغ

(الجواب) الحمد لله رب العالمين : إن أراد بذلك أنه لا بدَّ من واسطة تُبلغنا أمرَ الله فهذا حق ، فإن الخلق لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه وما أمر به وما نهى عنه ، وما أعده لأوليائه من كرامته ، وما وعد به أعداءه من عذابه ، ولا يعرفون ما يستحقه الله تعالى من أسمائه الحسنى ، وصفاته العليا التي تعجَز العقول عن معرفتها وأمثال ذلك إلا بالرسل الذين أرسلهم الله تعالى إلى عباده .

فالمؤمنون بالرسل المتبعون لهم هم المهتدون الذين يقربهم لديه زُلفى ويرفع درجاتهم ، ويُكرمهم في الدنيا والآخرة .

واما المخالفون للرسل فإنهم ملعونون وهم عن ربهم ضالون محجوبون ، قال الله تعالى :

﴿يا بني آدم إمَّا يأتيَنكم رسلٌ منكم يَقصُّون عليكم آياتي فمن اتَّقى وأصلح فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كذَّبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون ﴾ «الأعراف : ٣٥ ـ ٣٦»

وقال تعالى : ﴿ فإما يأتينَّكم مني هُدَىً فَمَن اتَّبعَ هُدَايَ فَلا يضلُّ ولا يَشقى ومَنْ أعرض عن ذكري فإن له معيشةً ضَنْكاً ونَحشُره يومَ القيامة أعمىٰ قال رَب لِمَ حَشرتني أعمى وقد كنتُ بصيراً قال كذلك أتَتْكَ آيَاتنا فَنسِيتها وكذلكَ اليومَ تُنْسى ﴾ «طه : ١٢٣ - ١٢٦»

قال ابن عباس : تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة .

وقال الله تعالى عن أهل النار : ﴿ كُلَّما أُلْقِيَ فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ؟ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذَّبْنا وقلنا ما نزل الله من شيء ، إن أنتم إلا في ضلالٍ كبير ﴾ «الملك : ٨ - ٩» .

وقال الله تعالى : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنمَ زُمَراً حتى إذا جاؤوها فُتِحت أبْوَابُها وقال لهم خزنَتُها ألم يأتِكم رسل منكم يتلونَ عليكم آياتِ ربكم ويُنذِرُونَكم لِقاء يَومِكُم هذا قالوا بَلى ولكن حَقَّتْ كلمةُ العذاب على الكافرين ﴾ «الزمر : ٧١»

وقال تعالى : ﴿ وما نرسِلُ المرسَلينَ إلا مُبشِّرين ومُنذِرينَ فَمنْ آمنَ وأصلحَ فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كذَّبوا بآياتنا يَمسُّهم العذابُ بما كانوا يفسُقون ﴾ «الأنعام : ٤٨ - ٤٩» .

وقال تعالى : إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوحٍ والنبيِّين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زَبُوْراً ورسُلاً قد

قصصناهم عليك من قبل ورسُلاً لم نقصُصْهم عليك وكلّم الله موسى تكليما رسُلاً مُبشرين ومُنذرين لِئَلا يكونَ للناس على الله حُجةٌ بعد الرسل ﴾ . «سورة النساء : ١٦٣ ـ ١٦٥» ومثل هذا في القرآن كثير .

وهــذا ما أجمــع عليه جميع أهـل المِلل من المسلمـين واليهـود والنصارى ، فإنهم يُثبتون الوسائط بين الله وبين عباده وهـم الرسل الذين بلّغوا عن الله أمره وخبره . قال تعالى :

﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾ «سورة الحج : ٧٥»

ومن أنكر هذه الوسائط فهو كافر باجماع أهل الملل .

والسور التي أنزلها الله بمكة مثل الأنعام والأعراف وذوات (آلر) و (حَمّ) و (طَسّ) ونحو ذلك هي متضمنة لأصول الدين كالإيمان بالله ورسله واليوم الآخر .

وقد قص الله قصص الكفار الذين كذبوا الرسل وكيف أهلكهم ونصر رسله والذين آمنوا .

قال تعـالى : **﴿ ولقـد سبقت كلمتُنا لعبادنا المرسَلين إنهم لَهم المنصورون وإن جُندنا لهم الغالبون ﴾** . «الصافات : ١٧١ ـ ١٧٣»

وقال الله تعالى : **﴿ إنا لَننصرُ رسُلَنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويومَ يقوم الأشهاد ﴾** . «المؤمين : ٥١»

فهذه الوسائط تُطاع وتُتبّع ويُقتدى بها كما قال تعالى :

﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليُطاع بإذن الله ﴾ «النساء : ٦٤» .

وقال تعالى : **﴿ من يطع الرسولَ فقد أطاع الله ﴾** «النساء : ٨٠»

وقال تعالى : **﴿ قل إن كنتم تُحبون الله فاتّبعوني يُحببكم الله ﴾**

«ال عمران : ٣١»

وقال تعالى : ﴿ فالذين آمنوا به وعزَّروه ونصروه واتَّبعوا النورَ الذي أُنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ «الأعراف : ١٥٧»

وقال تعالى : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ «الأحزاب : ٢١»

الرسل لا يجلبون النفع

وإن أراد بالواسطة أنه لا بُد من واسطة في جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يكون واسطة في رزق العباد ونصرهم وهداهم يسألونه ذلك ويرجعون اليه فيه ، فهذا من أعظم الشرك الذي كفَّر الله به المشركين حيث اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء يجتلبون بهم المنافع ويجتنبون المضار ، لكن الشفاعة لمن يأذن الله له فيها قال الله تعالى :

﴿ الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾ «السجدة : ٤»

وقال تعالى : ﴿ وأنذِرْ به الذين يخافون أن يُحشَروا إلى ربهم ليس لهم من دونه وليٌّ ولا شفيع ﴾ «الأنعام : ٥١» .

وقال الله تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يَملكون كشف الضُرِّ عنكم ولا تحويلا ، أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيُّهم أقربُ ويرجون رحمتَه ويخافون عذابه إن عذاب رَبك كان محذوراً ﴾ «الأسراء : ٥٦ ـ ٥٧»

وقال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرَّة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما مِن شِرك وما له منهم من ظَهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لِمن أذِنَ له ﴾ «سبأ : ٢٢ ـ ٢٣»

وقالت طائفة من السلف : أقوام يدعون المسيح والعُزير والملائكة ؛ فبيَّن الله أن الملائكة والأنبياء لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلا ، وأنهم يتقربون إلى الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه .

وقال الله تعالى : ﴿ ما كان لبشر أن يُؤتيه الله الكتاب والحُكم والنبوَّة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ؛ ولكن كونوا رَبَّانيِّين بما كنتم تُعلِّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيِّين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مُسلمِون ﴾ «آل عمران : ٧٩ ـ ٨٠»

فبيَّن سبحانه أن اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً كفر ، فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يسألهم غفران الذنب ، وهداية القلوب ، وتفريج الكروب ، وسد الفاقات فهو كافر بإجماع المسلمين .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عبادٌ مكرَمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهُم مِن خشيته مُشفِقون . ومَن يَقُلْ منهم إني إلَهٌ مِن دونهِ فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾ «الأنبياء : ٢٦ ـ ٢٩»

وقال تعالى : ﴿ لن يَستَنكِف المسيحُ أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقرَّبون ومَن يستنكِفْ عن عبادته ويستكبرْ فسيحشرُهم

إليه جميعاً ﴾ «النساء ١٧٢»

وقال الله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذا الرحمن ولداً لقد جئتُمْ شيئاً إدًّاً تكادُ السمواتُ يتفطَّرن منه وتنشقُّ الأرضُ وتَخِرُّ الجبالُ هَدًّاً أنْ دعَوا للرحمن ولـداً ، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا ، إن كلُّ مَن في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً ، لقد أحصاهم وعدَّهم عَدًّاً وكلُّهم آتيه يومَ القيامةِ فرداً ﴾ «مريم ٨٨ ـ ٩٥»

وقـال الله تعـالى : ﴿ ويعبدون مِن دون الله ما لا يضرُّهم ولا ينفعهُم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبِّئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يُشركون ﴾ «يونس ١٨»

وقال الله تعالى : ﴿ وكم من مَلَكٍ في السموات لا تُغني شفاعتُهم شيئاً إلا مِن بعد أن يأذن الله لِمن يشاء ويرضى ﴾ «النجم ٢٦»

وقال الله تعالى : ﴿ مَن ذا الذي يشفعُ عنده إلا بإذنه ﴾
«البقرة ٢٥٥»

وقال الله تعالى : ﴿ وإن يمسَسْكَ الله بِضُرٍ فلا كاشِفَ له إلا هو وإن يُرِدْكَ بخيرٍ فلا رادَّ لِفضله ﴾ «يونس ١٠٧»

وقال الله تعالى : ﴿ ما يَفتَح الله لِلناس مِن رحمةٍ فلا مُمسِكَ لها وما يُمسِكْ فلا مرسِل له مِن بعده ﴾ «فاطر ٢»

وقال الله تعالى : ﴿ قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنيَ الله بِضُرَّ هلْ هُنَّ كاشفاتُ ضُرِّه أو أرادني برحمةٍ هل هُنْ مُمْسكاتُ رحمتِه ، قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾

ومثل هذا في القرآن كثير «الزمر ٣٨»

ومن سِوى الأنبياء من مشايخ العلم والدين ، فمن أثبتهم وسائط بين الرسول وأمته يُبلغونهم ويُعلمونهم ويؤدبونهم ويقتدون بهم فقد أصاب في ذلك .

وهؤلاء إذا أجمعوا فإجماعهم حُجة قاطعة لا يجتمعون على ضلالة وإن تنازعوا في شيء ردُّوه إلى الله والرسول ، إذ الواحد منهم ليس بمعصوم على الإطلاق ، بل كل أحدٍ من الناس يؤخذ من كلامه ويُترك إلا رسول الله ﷺ .

وقد قال النبي ﷺ : (العلماء ورثة الأنبياء فإن الأنبياء لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر)

«رواه أبو داود والترمذي وهو حديث حسن لشواهده»

ومن أثبتهم وسائط بين الله وبين خلقه كالحُجاب الذين بين الملك ورعيته بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائج خلقه ؛ فالله إنما يهدي عباده ويرزقهم بتوسطهم فالخلق يسألونهم وهم يسألون الله ، كما أن الوسائط عند الملوك يسألون الملوك الحوائج للناس لقربهم منهم ، والناس يسألونهم أدباً منهم أن يباشروا سؤال الملك ، أو لأن طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم من الملك لكونهم أقرب إلى الملك من الطالب للحوائج ، فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه فهو كافر مشرك يجب أن يُستتاب فإن تاب وإلا قتل ، وهؤلاء مُشبهون لله شبهوا المخلوق بالخالق وجعلوا لله أنداداً .

أنواع الوسائط المردودة

وفي القرآن الكريم من الرد على هؤلاء ما لم تتسع له هذه الفتوى ، فإن الوسائط التي بين الملوك وبين الناس يكونون على أحد وجوه ثلاثة :

الوجه الأول : إما لإخبارهم من أحوال الناس بما لا يعرفونه ، ومَن قال إن الله لا يعلم أحوال عباده حتى يُخبره بذلك بعض الملائكة أو الأنبياء أو غيرهم فهو كافر ، بل هو سبحانه يعلم السر وأخفى لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء وهو السميع البصير ، يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات ، لا يشغله سمع عن سمع ولا تُغلطه المسائلِ ولا يتبرم بإلحاح الملحين .

الوجه الثاني : أن يكون الملك عاجزاً عن تدبير رعيته ودفع أعدائه إلا بأعوان يُعينونه ، فلا بُدَّ له مِن أنصار وأعوان لذُله وعجزه ، والله سبحانه ليس له ظَهير ولا ولي من الذل قال الله تعالى :

﴿ قل ادعوا الذين زعمتم مِن دون الله لا يملكون مثقال ذَرَّةٍ في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شِركٍ وما له منهم مِن ظَهير ﴾ «سبا : ٢٢»

وقال تعالى : ﴿ وقل الحمدُ لله الذي لم يتخِذْ ولداً ولم يكنْ له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذُلِّ وكبِّره تكبيرا ﴾ «الإسراء ١١١»

وكل ما في الوجود من الأسباب فهو خالقه وربُّه ومليكه فهو الغني عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فقير إليه ، بخلاف الملوك المحتاجين إلى ظهرائهم وهم في الحقيقة شركاؤهم في الملك ، والله تعالى ليس له

شريك في الملك ، بل لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

والوجه الثالث : أن يكون الملك ليس مُريداً لنفع رعيته والإحسان إليهم ورحمتهم إلا بمُحرك يُحركه من خارج ؛ فإذا خاطب الملك من ينصحه ويُعظمه أو من يدل عليه بحيث يكون يرجوه ويخافه تحركت إرادة الملِك وهِمّته في قضاء حوائج رعيته ، إما لما حصل في قلبه من كلام الناصح الواعظ المشير ، وإما لما يحصل من الرغبة أو الرهبة من كلام المُدِل عليه ، والله تعالى هو رب كل شيء ومليكه ، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، وكل الأشياء إنما تكون بمشيئته ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو إذا أجرى نفع العبادَ بعضهم على بعض : فجعل هذا يُحسن إلى هذا ويدعو له ويشفع فيه ونحو ذلك ، فهو الذي خلق ذلك كله ، وهو الذي خلق في قلب هذا المحسن الداعي الشافع إرادة الإحسان والدعاء والشفاعة .

لا يجوز أن يكون في الوجود من يُكرهه على خلاف مراده ، أو يُعلِمه ما لم يكن يعلم ، أو مَن يرجوه الرب ويخافه .

ولهذا قال النبي ﷺ : **(لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ؛ ولكن ليَعْزِمْ المسألة فإنه لا مُكره له)** «متفق عليه»

والشفعاء الذين يشفعون عنده : لا يشفعون إلا بإذنه ، كما قال :

﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ «البقرة : ٢٥٥»

وقال الله تعالى : **﴿ ولا يشفعون إلا لِمَنِ ارتضى ﴾** «الأنبياء : ٢٨»

وقال الله تعالى **﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون**

مثقال ذَرة في السمواتِ ولا في الأرض ، وما لهم فيها من شِركٍ وما له منهم من ظهير . ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لِمن أذن له ﴾ «سبأ : ٢٢-٢٣»

فبيَّن أن كل مَن دُعي مِن دونه : ليس له مُلك ولا شِرك في الملك ولا هو ظهير ، وأن شفعاتهم لا تنفع إلا لمن أذن له .

وهذا بخلاف الملوك فإن الشافع عندهم قد يكون له ملك ، وقد يكون شريكاً لهم في الملك ، وقد يكون مُظاهراً لهم مُعاوناً لهم على ملكهم .

وهؤلاء يشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك هم وغيرهم ، والمِلك يقبل شفاعتهم تارة بحاجته إليهم ، وتارة لخوف منهم ، وتارة لجزاء إحسانهم إليه ومكافأتهم ولإنعامهم عليه ؛ حتى إنه يقبل شفاعة ولده وزوجته ، لذلك فإنه محتاج إلى الزوجة وإلى الولد ؛ حتى لو أعرض عنه ولده وزوجته لتضرر بذلك ، ويقبل شفاعة مملوكه ، فإذا لم يقبل شفاعته يخاف أن لا يُطيعه ، أو أن يسعى في ضرره ؛ وشفاعة العباد بعضهم عند بعض كلها مِن هذا الجنس ، فلا يقبل أحد شفاعة أحد إلا لرغبة أو رهبة ، والله تعالى لا يرجو أحداً ، ولا يخافه ولا يحتاج إلى أحد ، بل هو الغني قال الله تعالى :

﴿ ألا إن لله مَن في السمواتِ ومَن في الأرض وما يَتَّبع الذين يدعون مِن دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يَخرصُون ﴾

إلى قوله ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السمواتِ وما في الأرض ﴾ «يونس : ٦٦ - ٦٨»

والمشركون يتخذون شفعاء مِن جنس ما يَعُدونه مِن الشفاعة .

قال الله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يَضرُّهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاءِ شفعاؤنا عندَ الله قل أتنبِّؤُن الله بما لا يعلم في السمواتِ

ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يُشركون ﴾ «يونس : ١٨»

وقال تعالى ﴿ فلولا نصَرَهُم الذين اتخذوا من دون الله قُرباناً آلهة ، بل ضلُّوا عنهم وذلك إفكُهم وماكانوا يفترون ﴾ «الأحقاف : ٢٨»

وأخبر عن المشركين أنهم قالوا :

﴿ ما نعبدُهم إلا ليُقرِّبونا إلى الله زُلفى ﴾ «الزمر : ٣»

قال تعالى : ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكةَ والنبيِّين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ «ال عمران : ٨٠»

الشفاعة الباطلة والصحيحة

قال الله تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم مِن دونه فلا يَملِكون كشفَ الضُرِّ عنكم ولا تحويلا أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربِّهِمُ الوسيلةَ أيُّهم أقربُ ويرجون رحمته ويخافون عذابَه إن عذابَ رَبك كان محذوراً ﴾ . «الإسراء : ٥٦ ـ ٥٧»

فأخبر أن ما يُدعى مِن دونه لا يملك كشفَ ضُرٍّ ولا تحويله ، وأنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ، ويتقربون إليه . فهو سبحانه قد نفى ما للملائكة والأنبياء إلا الشفاعة بإذنه ، والشفاعة هي الدعاء ، ولا ريَب أن دعاء الخلق بعضهم لبعض نافع والله قد أمر بذلك .

لكن الداعي الشافع ليس له أن يدعو ويشفع إلا بإذن الله له في ذلك ، فلا يشفع شفاعة نُهي عنها ، كالشفاعة للمشركين والدعاء لهم بالمغفرة .

قال تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يَستغفروا لِلمشركين ولو كانوا أولي قُربى مِن بعد ما تبينَ لهم أنهم أصحابُ الجحيم وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدةٍ وعدها إياه فلما تبينَ له أنه عَدوٌ لله تبرّأ منه ﴾ «التوبة : ١١٣ - ١١٤»

وقال تعالى في حق المنافقين ﴿ سَواءٌ عليهم أستغفرتَ لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ﴾ «المنافقون : ٦»

وقد ثبت في الصحيح أن الله نهى نبيه عن الاستغفار للمشركين والمنافقين وأخبر أنه لا يغفر لهم كما في قوله :

﴿ إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفرُ ما دون ذلك لِمن يشاء ﴾ «النساء ٤٨»

وقوله ﴿ ولا تُصَلِّ على أحدٍ منهم مات أبداً ولا تقُم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ «التوبة : ٨٤»

وقد قال تعالى : ﴿ أُدعوا ربكم تَضرُّعاً وخُفية إنه لا يحب المعتدين ﴾ (في الدعاء) ، ومن الاعتداء في الدعاء أن يسأل العبد ما لم يكن الرب ليفعله مثل : أن يسأله منازلَ الأنبياء وليس منهم ، أو المغفرة للمشركين ونحو ذلك ، أو يسأله ما فيه معصية الله كإعانته على الكفر والفسوق والعصيان .

فالشفيع هو الذي أذن الله له في الشفاعة : وشفاعته في الدعاء الذي ليس فيه عدوان ، ولو سأل أحدهم دعاء لا يصلح له لا يُقَرُّ عليه ، فإنهم معصومون أن يُقَرُّوا على ذلك ، كما قال نوح :

﴿ إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ﴾

«هود آية ٤٥»

قال الله تعالى : ﴿ يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمَلٌ غيرُ صالح فلا تسألن ما ليس لك به عِلم إني أعِظُكَ أن تكون مِن الجاهلين . قَال رب إني أَعَوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفِرْ لي وترحمني أكن من الخاسرين ﴾ «هود آية ٤٦ ـ ٤٧»

وكل داع شافع دعا الله سبحانه وتعالى وشفع ، فلا يكون دعاؤه وشفـاعته إلا بقضاء الله وقدره ومشيئته ، وهو الذي يجيب الدعاء ويقبـل الشفاعة ، فهو الذي خلق السبب والمسبِّب ، والدعاء من جملة الأسباب التي قدرها الله سبحانه وتعالى .

مقدار الأسباب

وإذا كان كذلك فالالتفات إلى الأسباب شرك (١) في التوحيد ، ومحـو الأسباب أن تكون أسباباً نقصٌ في العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع (٢) بل العبد يجب أن يكون توكله ودعـاؤه وسؤالـه ورغبته إلى الله سبحانه وتعالى ، والله يُقدِّرُ له من الأسباب من دعاء الخلق وغيرهم ما شاء .

---

(١) وذلك إذا اعتقد ، أن هذه الأسباب تؤثر بنفسها دون أن ينظر إلى مسبب الأسباب وهو الله .

(٢) يجب على المؤمن الأخذ بالأسباب المشروعة والتوكل على الله لقوله ﷺ للرجل :
«اعقلها وتوكل» «حسنه الترمذي»

الدعاء المشروع والشفاعة

والدعاء مشروع أن يدعو الأعلى للأدنى والأدنى للأعلى ، فطلب الشفاعة والدعاء من الأنبياء كما كان المسلمون يستشفعون بالنبي ﷺ في الاستسقاء ، ويطلبون منه الدعاء ؛ بل وكذلك بعده استسقى عمر والمسلمون بالعباس عمه ، والناس يطلبون الشفاعة يوم القيامة من الأنبياء ، ومحمد ﷺ ، وهو سيد الشفعاء ، وله شفاعات يختص بها ، ومع هذا فقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال :

(إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلُّوا عليَّ فإنه مَن صلَّى عليَّ مَرة صلَّى الله عليه عشراً ، ثم سَلوا الله لي الوسيلة ، فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبدٍ مِن عباد الله ، وأرجو أن أكون ذلك العبد ، فمن سأل الله ليَ الوسيلة حلَّت له الشفاعة) . «رواه مسلم»

فالنبي ﷺ قد طلب من أُمته أن تدعو له ؛ ولكن ليس ذلك من باب سؤالهم ، بل أمرُه بذلك لهم كأمره لهم بسائر الطاعات التي يثابون عليها مع أنه ﷺ له مِثلُ أجورهم في كل ما يعملونه ، فإنه قد صح عنه أن قال :

(مَن دعا إلى هُدى كان له مِن الأجر مثل أجور مَن تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام مَن تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً) «رواه مسلم»

وهو داعي الأمة إلى كل هدى فله مِثل أجورهم في كل ما اتبعوه

فيه ، وكذلك إذا صَلُّوا عليه فإن الله يُصلي على أحدهم عشراً ، وله مثلُ أجورهم مع ما يستجيبه مِن دعائهم له ، فذلك الدعاء قد أعطاهم الله أجرهم عليه ، وصار ما حصل له به من النفع نعمة من الله عليه .

وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قال : (ما مِن عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة إلا وكَّلَ الله به ملَكا كلما دعا لأخيه بدعوة قال المَلَكُ الموكَّلُ به آمين ولك مثل ذلك) «رواه مسلم»

فالدعاء للغير ينتفع به الداعي والمدعو له ، وإن كان الداعي دون المدعو له ، فدعاء المؤمن لأخيه ينتفع به الداعي والمدعو له ، فمن قال لغيره أدعُ لي وقصد انتفاعهما جميعاً بذلك كان هو وأخوه متعاونين على البر والتقوى ، فهو نبه المسؤول وأشار عليه بما ينفعهما .

والمسؤول فعل ما ينفعهما بمنزلة من يأمر غيره ببرٍ وتقوى ، فيُثاب المأمور على فعله ، والآمرُ أيضا يثاب مثل ثوابه لكونه دعا إليه ، لا سيما ومن الأدعية ما يؤمر بها العبد كما قال الله تعالى :

﴿ واستغفرْ لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ «محمد ١٩»

فأمره بالاستغفار ثم قال ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهَم الرسولُ لو جَدوا الله تواباً رحيما ﴾ «النساء ٦٤»

فذكر سبحانه استغفارهم واستغفار الرسول لهم إذ ذاك مما أمر به الرسول حيث أمره أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، ولم يأمر الله مخلوقاً

أن يسأل مخلوقاً شيئاً لم يأمر الله المخلوّق به ، بل ما أمر الله العبد أمرَ إيجاب أو استحباب ، ففعله هو عبادة لله وطاعة وقربة إلى الله ، وصلاح لفاعله وحسنة فيه ، وإذا فعل ذلك كان أعظم لإحسان الله إليه وإنعامه عليه ، بل أجلُّ نعمة أنعم الله بها على عباده أن هداهم للإيمان .

والإيمان قول وعمَل يزيد بالطاعة والحسنات ، وكلما ازداد العبد عملاً للخير ازداد إيمانه . هذا هو الإنعام الحقيقي المذكور في قوله تعالى : ﴿ صِراطَ الذين أنعمتَ عليهم ﴾ «الفاتحة : ٧»

وفي قوله : ﴿ ومَن يُطع الله والرسولَ فأولئك مع الذين أنعمَ الله عليهم ﴾ «النساء آية ٣٩»

نعم الدنيا والدين

بل نِعم الدنيا بدون الدين هل من نعمة أم لا ؟

فيه قولان مشهوران للعلماء من أصحابنا وغيرهم .

والتحقيق أنها نعمة من وجه ، وإن لم تكن نعمة تامة من وجه .

وأما الإنعام بالدين الذي ينبغي طلبه فهو ما أمر الله به من واجب ومستحب ، فهو الخير الذي ينبغي طلبه باتفاق المسلمين ، وهو النعمة الحقيقية عند أهل السنة إذ عندهم أن الله هو الذي أنعم بفعل الخير . والقدرية عندهم إنما أنعم بالقدرة عليه الصالحة للضدين فقط . والمقصود هنا أن الله لم يأمر مخلوقاً أن يسألَ مخلوقاً إلا ما كان مصلحة لذلك المخلوق ، إما واجباً أو مستحباً ، فإنه سبحانه لا يطلب من العبد إلا ذلك ، فكيف يأمر غيره أن يطلب منه غير ذلك ؟

بل حرم على العبد أن يسأل العبدَ ماله إلا عند الضرورة ، وإن كان قصده مصلحة المأمور أو مصلحته ومصلحة المأمور ، فهذا يثاب على ذلك ، وإن كان قصده حصول مطلوبه من غير قصد منه لانتفاع المأمور فهذا من نفسه أُتِيَ .

ومثل هذا السؤال لا يأمر الله به قط ، بل قد نهى عنه إذ هذا السؤال محض للمخلوق من غير قصده لنفعه ولا لمصلحته ، والله يأمرنا أن نعبده ونرغب إليه ويأمرنا أن نحسن إلى عباده .

وإذا لم يقصد لا هذا ولا هذا فلم يقصد الرغبة إلى الله ودعائه وهو الصلاة ، ولا قصد الإحسان إلى الخلق الذي هو الزكاة ، وإن كان العبد قد لا يأثم بمثل هذا السؤال ؛ لكن فرق ما بين ما يؤمر به العبد وما يؤذن له فيه ، ألا ترى أنه قال في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب أنهم لا يسترقون ؟

وإن كان الاسترقاء جائزاً ، وهذا قد بسطناه في غير هذا الموضع .

الوسائط والشرك

والمقصود هنا أن من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه كالوسائط التي تكون بين الملوك والرعية ، فهو مشرك ، بل هذا دين المشركين عباد الأوثان كانوا يقولون إنها تماثيل الأنبياء والصالحين ، وإنها وسائل يتقربون بها إلى الله (١) وهو من الشرك الذي أنكره الله على النصارى

(١) قال تعالى ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ، ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴾ «الزمر آية ٣»

حيث قال : ﴿ اتخذوا أحبارَهم ورُهبانهم أرباباً مِن دون الله والمسيحَ ابنَ مريم وما أُمروا إلا ليعبدوا إلٰهاً واحداً لا إلٰه إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ «التوبة ٣١»

وقال تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أُجيب دعوةَ الداعِ إذا دعانِ فلْيستَجيبوا لي وليؤمنوا بي لَعلهم يَرشدون ﴾

«البقرة : ١٨٦»

أي فليستجيبوا لي إذا دعوتهم بالأمر والنهي ، وليؤمنوا بي أن أجيب دعاءهم لي بالمسألة والتضرع .

وقال تعالى ﴿ فإذا فرغتَ فانصَب وإلى رَبك فارغب ﴾

«الإنشراح : ٧ ـ ٨»

وقال تعالى : ﴿ وإذا مسَّكمُ الضرُّ في البحر ضَلَّ مَن تدعون إلا إيَّاه ﴾ «الإسراء ٦٧»

وقال تعالى : ﴿ أمَّنْ يُجيبُ المضطرَّ إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ ؟ «النمل : ٦٢»

وقال تعالى : ﴿ يسأله مَن في السموات والأرض كلَّ يوم هو في شأن ﴾

«الرحمن ٢٩»

وقد بيَّن الله هذا التوحيد في كتابه وحسم مواد الإشراك به حتى لا يخاف أحد غير الله ، ولا يرجو سواه ولا يتوكل إلا عليه .



قال تعالى : ﴿ فلا تخشوُا الناس واخشوني ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا ﴾ «المائدة : ٤٤»

وقال تعالى ﴿ إنما ذلكم الشيطان يُخوِّفُ أولياءه : [أي يخوفكم أولياءه] فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ . «آل عمرآن ١٧٥»

وقال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كُفُّوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كُتِبَ عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناسَ كخشية الله أو أشدَّ خشية ﴾ «النساء ٧٧»

وقال تعالى : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشَ إلا الله ﴾ «التوبة ١٨»

وقال تعالى : ﴿ ومَن يُطع الله ورسوله ويخشَ الله ويَتَّقْهِ فأولئك هم الفائزون ﴾ «النور : ٥٢»

فبين أن الطاعة لله ورسوله ، وأما الخشية فلله وحده :

قال تعالى :

﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله ﴾ «التوبة ٥٩»

ونظيره قوله تعالى : ﴿ الذين قال لهم الناسُ إن الناسَ قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾

«آل عمران : ١٧٣»

الرســول يحقــق التوحيــد

وكان النبي ﷺ يحقق هذا التوحيد لأمته ويحسم عنهم مواد الشرك إذْ هذا تحقيق قولنا لا إله إلا الله ، فإن الاله هو الذي تألَهُهُ القلوب بكمال المحبة والتعظيم والإجلال والإكرام والرجاء والخوف حتى قال لهم : **(لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد)** «صحيح رواه أحمد وغيره»

(وقال له رجل ما شاء الله وشئت فقال أجعلتني لله نِداً قل ما شاء الله وحده) «رواه أحمد بسند حسن»

وقال : **(مَن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليَصْمت)** «متفق عليه»

وقال : **(من حلف بغير الله فقد أشرك)** «صحيح رواه أحمد»

وقال لابن عباس **(إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله جف القلم بما أنت لاقٍ ، فلو جَهـدَت الخليقة على أن تنفعك لم تنفعْك إلا بشيء كتبه الله لك ، ولو جهِدت أن تضركَ لم تضرك إلا بشيء كتبه الله عليك)** «رواه الترمذي وقال حسن صحيح»

وقال أيضاً **(لا تُطروني كما أطرتِ النصارى عيسى ابن مريم ، فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله)** «رواه البخاري» .

وقال **(اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبَد)** «رواه أحمد بسند صحيح»

وقال **(لا تتخذوا قبري عيداً ، وصلُّوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث ما كنتم)** «رواه أبوداود بسند حسن» ن»

وقال في مرضه : **(لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)** . يُحذر ما صنعوا .

قالت عائشة : ولولا ذلك لَأُبرز قبره ، ولكن كره أن يُتخذ مسجداً) «متفق عليه»

ومع علم المؤمن أن الله ربُّ كل شيء ومليكه ؛ فإنه لا يُنكِر ما خلقه الله من الأسباب ، كما جعل المطر سبباً لإنبات النبات :

قال الله تعالى : ﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرضَ بعد موتها وبَثَّ فيها مِن كل دابة ﴾ «البقرة ١٦٤» .

وكما جعل الشمس والقمر سبباً لما يخلقه بهما ، وكما جعل الشفاعة والدعاء سبباً لما يقضيه بذلك مثل صلاة المسلمين على جنازة الميت ، فإن ذلك من الأسباب التي يرحمه الله بها ويُثيب عليها المصلين عليه .

الأسباب المشروعة وغير المشروعة

لكن ينبغي أن يُعرف في الأسباب ثلاثة أمور :

أحدها : أن السبب المعيّن لا يستقل بالمطلوب ، بل لا بُدَّ معه من أسباب أُخر ، ومع هذا فلها موانع ، فإن لم يُكمل الله الأسباب ويدفع الموانع لم يحصل المقصود وهو سبحانه ما شاء كان ، وإن لم يشأ الناس ، وما شاء الناس لا يكون إلا أن يشاء الله .

الثاني : أن لا يجوز أن يعتقد أن الشيء سبب إلا بعلم ، فمن أثبت شيئاً سبباً بلا علم أو يخالف الشرع كان مبطلاً ، مثل من يظن أن النذر سبب في دفع البلاء وحصول النّعماء .

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه نهى عن النذر وقال : (إنه لا يأتي بخير ، وإنما يُستخرج به من البخيل) . «متفق عليه»

الثالث : أن الأعمال الدينية لا يُجوز أن يتخذ منها شيء سبباً إلا أن تكون مشروعة ؛ فإن العبادات مبناها على التوقيف ؛ فلا يجوز للإنسان أن يُشرك بالله فيدعو غيره ـ وإن ظن أن ذلك سبب في حصول بعض أغراضه ـ وكذلك لا يُعبدُ الله بالبدع المخالفة للشريعة وإن ظن ذلك ، فإن الشياطين قد تُعين الإنسان على بعض مقاصده إذا أشرك ، وقد يحصل بالكفر والفسوق والعصيان بعض أغراض الإنسان ، فلا يحل له ذلك ، إذ المفسدة الحاصلة بذلك أعظم من المصلحة الحاصلة به ، إذ الرسول ﷺ بُعث بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، فما أمر الله به فمصلحته راجحة ، وما نهى عنه فمفسدته راجحة ، وهذه الجمل لها بسط لا تحتمله هذه الوريقات والله أعلم .

« انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ١/١٢١» .



لا تدعوا مع الله أحداً

قولوا لمن يدعوا سوى الـــرحمن مُتخشِّعــاً في ذِلَّــةِ العُبــدان
يا داعياً غير الإلــه ألا اتَّئِــدْ إن الدعــاءَ عبــادةُ الــرحمن
أنسيتَ أنكَ عبــدُه وفــقيرهِ ودعــاؤه قد جاء في القــرآن
الله أقرب مَن دعــوتَ لِكربــة وهـــو المجيب بلا توسط ثان
هل جاء دعوةُ غيره في سُنــة ؟ أم أنتَ فيه تابع الشيطــان ؟
إن كنت فيما تدَّعيه على هُدىً فلْتَأْتنــا بسواطــع البرهــان
والله ما دعتِ الصحابــةُ غيره يتقربــون به كذي الأوثــان
لكنَّ هذا الفعلَ كان لديهمــو شِركــاً ، وفــرُّوا منــه للإيمان
ليس التوسلُ والتقــربُ بالهوى بل بالتقـــى والبر والإحسان
هذا كتــاب الله يفصل بيننــا هل جاء فيه : توسلوا بفلان ؟
إن التــوسل في الكتــاب لواضح وإذا فطِــنْتَ فإنــه نوعــان[1][2]

الشيخ عبد الظاهر أبو السمح
ــ رحمه الله ــ
مدير دار الحديث بمكة المكرمة

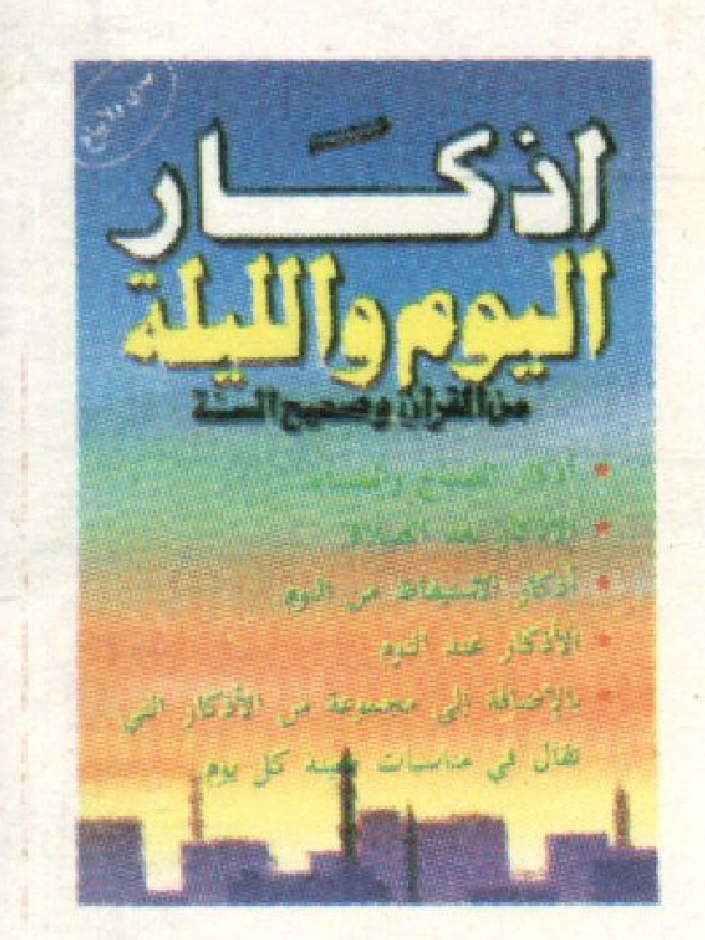
---

(١) توسل المؤمنين بطاعة الله وأعماله والعمل الصالح .
(٢) توسل المشركين بدعائهم لأوليائهم الممثلة في الأصنام .

إلّهي أنت المغيثُ وحدَك

يا مَن يَرى مافي الضمير ويَسمعُ
أنت المعَدُّ لِكل ما يتوقَّع
يا من يُرجَّى لِلشدائد كُلِها
يا من إليه المشتكى والمفزَعُ
يا من خزائِنُ رِزقهِ في قول كنْ
أُمنُنْ فإن الخيرَ عندك أجمعُ
مالي سوى فقري إليك وسيلة
فبالافتقار إليك فقري أدفعُ
مالي سوى قَرعي لبابِك حِيلةٌ
فلئِن رُدِدتُ فأيُّ باب أقرَعُ
ومَنِ الذي أدعو وأهتِفُ باسمِه
إن كانَ فضلُك عن فقيرِك يُمنَع
حاشا لِجودِك أن تُقنِّط عاصيا
الفضل أجزلُ وَالمواهبُ أوسع
ثم الصلاةُ على النبي وآله
(مَن جاء بالقرآن نوراً يسطع)





سلسلة كتاب

الطريق إلى الجنة

نبذة مختصرة عن أهم ما يجب أن يعلمه المسلم عن دينه





